« شيللر »

للاستاذ خليل هنداوى

حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبي ، وفى الغم الذي غشى نفسى ، تعلم - ياالهى - بأنى قد تحريت النور . . .
ارانى - دائما - اكثر هدوءا . . . !

« شيللر »

بين كل شعراء الادب الالمانى تجد « شيللر » هو اشقى من طغى عليهم الشك . وبرح بهم التشاؤم المعذب .

درج « شيللر » من مهده ، يغمره حنان أم هى رمز الثورى ومثال العطف . وأب دعاله حين احتضنه بذراعيه - « ربى ! امنح طفلى هدى العقل ، واهده السبيل الذى أخطه له » ، وهكذا كانت مظاهر طفولته محاطة بالايمان العميق . وقضى الشاعر نشأته الأولى مولعا بالكتب . وهائما فى الطبيعة يشبع ما يثور فى نفسه من الاهواء الشعرية .

دخل المدرسة وأخذ العلم يطغى على شاعريته وايمانه ، ولكن « شيللر » كره العلم والعلماء ، وكان يجد ألذ ساعاته ساعة ينفرد بنفسه ويتلو توراة (لوثر) او (المسباد) ولكن روح الشك كانت تتسلل الى نفسه من حيث لايشعر . وفجأة تيقظت هذه الروح فيه فغدا صاحب شك وقلق - وظل - فى دوره الاول - بين عاملين يتساجلان الغلبة عليه ، فطورا يقهر القلب المتردد روحه الصافية . وتارة تغلب روحه الصافية قلبه المتردد : فينشد متألما

(حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبى ، وفى الغم الذى غشى نفسى : علمت - ياالهى - بأنى قد تحريت النور .

انت اردت لى هذه الأيام السوداء ، التى تبرز فيها الاوهام المغرية من ناحية ، ويبرز الانكار - من ناحية اخرى - ضاحكا ضحكة الساخر

هانذا - تجار فوق رأسى العاصفة ! والقصبة سترتجف اذا لم ترحمنى يا الهى !

احرس قلبى فى هذا الهدوء المقدس وأنا سائر الى الحقيقة . فالشمس لاتعكس اشعتها فى اللجة الثائرة ، ولاتبسط شعاعها الاعلى صفحة الماء الرقراق .

إنى اسمع صلصلة الناقوس الذى يهتف بى الى الهيكل : فأغدو اليه حاملا ايمانى . . . .

ألا افتح قلبى لادراك الحقيقة ، حتى أستطيع ان اعانقها ، فأغدو سعيدا .)

فى هذه المقطوعة الصغيرة يظهر لنا شك الشاعر ، ومرارة قلبه ، وتوقان روحه الى الحقيقة ، والطريق التى اتخذها ليستعيد الهدوء والايمان . ولكن الله لم يجاور قلب شيللر كثيراً . لأن الشك تسرب اليه ظافراً ، وملك عليه نفسه ولما يتجاوز الثمانية عشر ربيعاً ، فعاد شاعر هذه المقطوعة الطافحة بالايمان شاعراً شاكا ماعلمنا سر انقلابه ! ولكن هل كانت المذاهب الفلسفية الا تاريخ قلب الانسان ؟ وهل كان الشك والجمود والسلب الا ثورة من ثورات النفس المتعطشة الى معرفة المجهول . واذا بشيللر يقول - متحديا الدين بلهجة من يؤله الطبيعة « ان الاله الواحد انما هو كل الكائنات . الطبيعة والاله هما قوتان متساويتان . الطبيعة هى اله يتعدد ويتقسم الى مالانهاية » ، وفى الاجتماع ، يؤمن بمذهب (روسو) القائل : ان الانسان يولد صالحاً ولكن المجتمع هو الذى يفسده (١) .

— ٢ —

لندرس الشاعر ، نفسه وقلبه وعواطفه فى رسائله وفى قصائده ، لأنها هى صورة نفسه - اذا توخينا صورتها الصادقة .

ان شقاء شيللر لم يكن شقاء شعريا خياليا فحسب ، بل كان شقاء مصدره نفسه التى غشيها منه ماغشيها ! فهو فى بعض احيانه يتنازعه عاملان : ثورة حواسه ، وتعنيف ضميره له تعنيفاً أراد أن يحطمه الشاعر فعجز عن تحطيمه ، ويتمثل أنينه هذا فى مقطوعة (القتال)

« لا لا . . . سوف لا أتحمل طويلا هذا القتال . . القتال الطاحن الذى يقوم به الواجب ، فاذا لم تقدرى على كبح أهواء قلبى ايتها الفضيلة ، فلا تطلبى منى التضحية . . . هذا اكليلك ليظل - كل الايام بعيداً عنى . . .

خذيه . . . وذرينى وحدى [illegible] »

وفى بعض أحيانه قد يجد الشاعر فى نفسه جرأة على الفرار ، الذى يتجلى فيه الانتصار . فيأوى الى ملجأ (مانهايم)

« فى حالة هم وغم ، اكتب لكم - يا أصدقائى - بانى لم أعد

(١) وهذا المذهب دفعه الى تأليف روايته (اللصان)

أيستطيع البقاء هنا - فانا خلال اثنى عشر يوما حبست مع نفسى كل مكان داخل نفسى وخارج نفسى ، طالباً الخروج من هذا العالم، فالناس والسماء والارض كلها غدت عندى قبيحة. أنا هنا فاقد نفسى ....»

وهناك لحظات نرى وطأة الحاضر والمستقبل والعالم والناس تثقل عليه حتى تحطم قلبه ، فيقول يائسا :

«إنى عانقت الانسانية بحرارة وشوق ملتهب ولكن — والأصح — لم أجد نفسى إلا بين ذراعى كتلة من جليد.»

ان النفوس التى نشأت فى كنف الله ، تجد — عند ما تنعتق منه — مالا يجده غيرها من أصناف الألم ، وضروب التوجع ، لأن هذا الفراغ الذى كان يملؤه الله ينقلب الى ظمأ شديد لا يرويه شىء ولا يملؤه شىء ....

هذه هى المرحلة الأولى التى قطعها شيللر ومن ورائها مراحل، والآن أصبح يظهر تردده كمذهب فى كتابه « رسائل فلسفية من جوك الى روفائيل » فما كان جوك إلا الشاعر نفسه ، وما كان روفائيل إلا صديقه الشاعر « كرونر » . ففى « جوك » تتجلى نفس فتية ينتابها الشك ، وهى لا تستطيع أن تفر من أسقامها على إيمان فقدته !

قال : (يالها من أيام سعيدة ! تلك الأيام السماوية . حين كنت أتيح مورد الحياة بعينى مغمضتين ، كنت مستسلماً لعواطفى وكنت سعيداً. علمنى روفائيل أن أفكر . وهأنذا الآن أكاد أذرى دموع الندم على هذا الاستكشاف . أنت سلبتنى الايمان الذى كان يودع الراحة فى قرارة نفسى ، وأوحيت الى أن أزدرى كل ما كنت أحترمه . فكم من أفكار كانت عندى مقدسة . فنزعت حكمتك (الحزينة) عنها رواءها . وأذهبت بهاءها .

كلما رأيت الناس وهم يرددون صلاة واحدة بلحن واحد قلت : لله هذه الشريعة التى استمسك بها الناس ! فبعثت فى قلوبهم الراحة والسكون .

عقلك قد أطفأ هيامى النفسى . أنت قلت لى : لا ترمن إلا بعقلك. ولا مقدس غير الحقيقة ، ولا حقيقة إلا ما يتقبله عقلك — وهكذا أطعتك وصرفت عنى أبهى افكارى.

والآن عقلى وحده ظل معى ليكون وحده دليلى يحملنى الى الله . الى الحقيقة والأبدية . فعساك لى اذا وجدت ما يخالف تفكيره . أو عراك شك فى معرفته ، أو غزاه داء تركه مشلولا .)

فروفائيل يمثل أصحاب المذهب العقلى القائلين بأن لا حكم إلا للعقل كما يذكر جول : « أنت قلت لى : لا تقبل شاهداً غير العقل ، إذ لا مقدس إلا الحقيقة . والحقيقى هو الشىء الذى تعرفه بعقلك ، قد أطعتك وضحيت بأيمانى وغدوت كالظافر اليائس الذى أحرق كل سفنه وقطن فى الجزيرة الجديدة قاتلا منه كل رجاء بالرجوع . فعقلى هو الآن كل شىء وهو وحده يحملنى الى الله ويفتح لى أبواب الحقيقة والأبدية ! ولكن تعساً لى إذا ضل دليلى الطريق فالعادة لابد أن تغادرنى . وويل لى إذا شاء القدر أن تنقطع أوتار هذه القيثارة ، فتضطرب ألحانها ، وتكثر أشجانى وأشجانها . »

وفى فترة ثانية يكتب جول هذه الرسالة لروفائيل :

(ان سلبك قد خدع كبريائى ، كنت سجينا وانت جذبتنى من عجلتى لتقودنى الى ضوء النهار . فالنور الذهبى والفضاء الفسيح قد لامساجفونى . بالامس كان يرضينى من المجد الوضيع ان أكون ابناً صالحاً وصديقاً فاضلا ورجلا نافعاً لبلده ، اما أنت فقد صيرتنى رجلا انسانياً .)

قال لى روفائيل : المملكة الوحيدة فى العالم الروحانى هى مملكة العقل

وفجأة ترى الشاعر يحس حقارة الانسان ازاء عظمة الوجود فيجعله احساسه هذا فى شك من نفسه فيقول .

فى أى مكان حيثما حولت انظارى يا روفائيل يبدو لى الانسان محدود العقل ، وان هوة عظيمة تفصل بين تأملاته وبين الحقيقة . لا تغبطه على النوم الذى يستريح فيه ولا توقظه ! فالعقل هو مشعل فى عجلة يثير لحظة فوق رأس السجين ثم يتركه فى ليل أكثر حلوكة . ان فلسفتنا هى رغبة (اوديب) فى المعرفة رغبة يحوطها الالم . ولا تنتهى من الالحاح والسؤال حتى يجيبها مجيب ، هل تستطيع ان تعلمنى من أنت ؟) ولكن الشك اخذ يحز فى قلب جول وجول يصيح ويتألم فتخمد جذوته المشتعلة ، فيقول مؤنباً (روفائيل) بلهجة النادم

(هل تعيد الى حكمتك ما سلبته منى ؟ واذا لم يكن — لديك — مفتاح تفتح لى به السماء فلماذا طردتنى من الارض ؟ واذا كنت تعلم ان سبل الحقيقة وراء حفائر الشك المخيفة فلماذا القيت صاحبك فى هذه الشعب الملتوية ؟

انت هدمت كوخاً حقيراً لتشيد على بقاياه قصراً منيعا ولكنه قصر فارغ ويالالأسف !

روفائيل !! أطلب منك نفسى ، فأنا لست بسعيد .

قد فقدت شجاعتى ، ويئست من قوتى . ويدك وحدها تستطيع ان تشفى جراحى .)

وروفائيل يجيبه :

(عزيزى جول :

أتريد أن تنصب عليك السعادة من السماء بدون انقطاع ؟ هذا كثير على نصيب الانسان . داء الشك الذى وقعت فيه لن تشفى منه الا بنفسك ، وبرغم ان يقظتك تعسة فانى لاأملك علاجاً أنقذك به من خيالك وأحلامك ؛ انا لم اضع شيئا للنفوس التى هى أمثال نفسك الا انى لقحتها بالاضطراب الذى لامفر منه

ايها الجاحد ! قد لعنت العقل ونسيت النعم التى حباك بها .)

وهاهوذا روفائيل يحاول ان يقود صديقه الى الحقيقة فيكتب له:

(ماالشك - ياصديقى - الا حذة العقل الانسانى فى ثورته . على ان الهزة الشاذة التى تصيب النفس الناشئة يجب الا تؤول بها الى تاييد صحتها ، وتثبيت وجهتها ، وكلما كان الخطأ بعيداً كان الظفر بالحقيقة اكثر خطراً . وكلما كثرت عوامل الشك فى الانسان كان اكثر لجاجة فى تحرى اليقين)

وكتاب روفائيل الاخير يقرب تأثير مدرسة (كانت) الفيلسوف. وفى تلك الاثناء كان شيللر يقف على أجدر ما كتبه (كونسبرغ) بالمطالعة من تصانيف فلسفية . فقرأ فيها بأن افكارنا و آراءنا التى نراها ، قد يمكن الايكون لها خارج عقلنا حقيقة مدركة . ومثل هذا المذهب يوافق كل الموافقة مذهب شكه ، بل يذهب شيللر الى أبعد من ذلك ، فبينما كان (كانت) يحرص على شىء من الحكمة فى (العقل المكتسب) اذا بشيللر يسلخ عن (الكانتيسم) هذه النتيجة التى تجعل الواجب شيئا مجرداً والفضيلة حلما .

والآن فلنتل بعض مقطوعاته نرى فيها هذا الشك بارزاً بألوان مختلفة يفيض على جنباتها ، ونرى الجمال الفنى أسمى صفاتها . أما المثل الأعلى فأنت تجهد نفسك باطلا لتقف عليه . لأنه هو حلم . يقول :

(لقد خمدت تلك الشمس التى كانت تضىء أيام فتوتى . وذهبت رسوم ذلك العالم الكامل الذى كان يهجس به ضميرى . وضاع ايمانى الجميل بتلك الاشياء التى كانت تخلقها لى أحلامى الوادعة الاهية .)

كان الشاعر يسأل . ماهو الوجود ؟ وأين يذهب ؟ وماذا يحول ؟ والانسان نفسه ما هو ؟

هو فى بعض أحيانه :

(كحاج فى ربيع أيامه ، وقف فى الطريق يستخفه الطرب فسمع صوتا يهتف به : سر وثابر على سيرك حتى تبلغ الأفق . حيث يغدو ما هو أرضى ترابى سماوياً لا نهائيا .

هذه كانت أنشودة الفجر :

ولكن - واأسفاه - قدم المساء وحالت الجبال والأنهار دون سيره ، فترامى على البحر لكى يبلغ غايته ! ولكن الغاية كانت تفر دائما دون أن يدركها .

وقف الحاج فى النهاية قائلا : واأسفاه ! لا طريق تقودنى الى الغاية ، والسماء لن تلتقى مع الأرض . والمكان الذى أنا فيه ليس هو المكان الذى يجب أن أكون فيه .)

وهو فى بعض أحيانه الأخرى (كالهارب) الذى يسأل عن نفسه .

(أين يجب على أن أمشى حتى أجد الهدوء ؟ أنا متكىء على عصاى ! والأرض الضاحكة بربيع شبابها ماهى - لى - إلا كالضريح .

فاصعد يالون الصباح ! ولون بالشفق والقبل الملتهبة هذه الاحراج والغابات . وانزل أيها المساء ، وسكن بهمسك الجميل هذا العالم الذى سكنت منه الحياة

أنت أيها الفجر لا تثير الاحقلا للأموات ، وأنت أيها المساء لا تهز بهمسك الجميل الا نعاسا طويلا .)

ولكن أية أحلام يريدها الشاعر فى قصيدته (الهة اليونان) فى هذه المقطوعة يظير الهدف الذى سعى اليه ، ووضعه نصب عينيه . فهو يتغنى بالشك ويتباهى به ، لأنه يقدس من اليونان الاقدمين مايريد ان ينشره من عبادتهم الوثنية فهو يعظم حنقهم البسيط ، ويكرم أساطيرهم الحساسة . بل هو يأسف على ذهاب العصر الذى كانت تحكم فيه مجموعة آلهة لطيفة تسيطر على العالم . وتقود الناس وراءها الى آلهات اللذائذ والمسرات ويختم هذه القصيدة بقوله :

(سرعان ماتبدل كل شىء ! فى كل الخليقة يجرى سلطان الحياة المطلق

(البقية على صفحة ٢٣٨)